الاجتماع البشري او العمران

لجناب الدكتور شبلي شميل

الغاية من الاجتماع البشري ويسمّى العمران أيضًا التعاون على المعاش والاعتمال في تحصيله من وجوهه واكتساب اسبابه . وذهبت طائفة من الحكماء الى ان الاجتماع نتيجة الفكر والرويّة وقصرته على الانسان وقال قومٌ بل هو طبيعيٌّ في الحيوان لما يُعهَد من اجتماع النمل والنحل والجراد والقرود كما سنبيّن ذلك في ما يأتي وانما بلغ الغاية في الانسان لأنهُ اتوهما تكوينًا وابعدها فكرًا وأقواها رويّةً . واجمعوا على انهُ ضروريٌّ البشر والاّ لم يكمل وجودهم ولم تتم حياتهم لان الانسان مضطرٌّ لدفع شرور كثيرة عنهُ مثل الجوع والعطش والبرد والتعب وعدوان بعضهِ على بعض وعدوان الحيوانات الأخر التي تساكنهُ ارضهُ وتنازعهُ الحياة فيها ولمقاومة قواسر اخرى طبيعية كثيرة . ويحتاج كذلك الى مواد وآلات يتقي بها هذه الشرور كالقوت والكساء والمساكن والاسلحة وغير ذلك مما يقتضي اعمالاً كثيرة فان كان منفردًا فهو لا يستطيع القيام بها جميعًا لان كل عملٍ منها يستغرق فيهِ حياةً كاملة وقد لا تفي بجزء منهُ فهو لا بدَّ لهُ من الاجتماع والتماس الاعمال حتى يتمّ لهُ التعاون بحيث يكون منهُ الزارع والصانع والجندي والوازع والمخترع والحكيم وحتى ينتظم وجودهُ ويحسن حالهُ . ولهذا شبّه الحكماء العمران بجسمٍ حيّ كسائر الاجسام الحيّة مركّب من اعضاء مختلفة تعمل لغاية واحدة وهي سلامة بعضها وسلامة الكل . ووصفهُ بعضهم وصفًا طبيعيًا نظيرها كما سيأتي . ولو اقتصر الانسان على الحياة منفردًا ما استطاع ان يتغذّى بغير الأثمار او يكتسي بغير اوراق الشجر يحصنها عليهِ او يأوي الى غير كوف الارض ولما امكن لهُ اقامة القصور الشاهقة وبناء المدن الحصينة واتخاذ الملابس الحسنة الفاخرة وطبخ الاطعمة الجيّدة اللذيذة واصطناع الاسلحة المنيعة ولكان اشبه بالحيوانات العجم ولما نما الى هذا الحد ولكانت حياتهُ اشبه بحياة الكريّات الحيّة المؤلف منها الجسم الحي اذا كانت منفردةً . فهو لم يستطع النهوض بهذه الاعمال الاّ مجتمعًا فحياتهُ الاجتماعيّة اذًا ضروريّة لحفظهِ وراحتهِ ورفاهيتهِ ولهذا نما فيهِ هذا الميل . للاجتماع الى حدٍّ بليغ جدًّا حتى وصفهُ الحكماء بقولهم الانسان مَدَنيٌّ بالطبع اي لا بدَّ لهُ من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم كما يقول ابن خلدون

ولكي يتمّ له ذلك لا بدّ له من سنن تكفله ولا بدّ من العدل في هذه السنن اي مراعاة مصالح الجمهور المتبادلة ولا بدّ من احترامها كذلك والّا انفصمت عروة الاجتماع وتداعت دعائمهُ . لكن لما كان الانسان كثيرًا ما لا يسلك من نفسهِ الطرق المثلى المؤدية الى ذلك اما عن عنوٍّ وغرور او عن جهل وذهول كان لابدّ له من اقامة قوّةٍ يناط بها المحافظة على المقرّر من السنن والاقتصاص ممن يحيد عن جادّتها والّا آل بهِ الحال الى الفوضى . اي لابدّ له من وازع يكون منهُ اذ لا يمكن ان يكون من سواهُ يدفع عدوان بعضهِ عن بعض ويهتم باصلاح شؤونهِ . وقد اشار ارسطو الى ذلك كلهِ في دائرتهِ المسمّاة في عرف السياسيين بالدائرة السياسية حيث قال " العالم بسنان سياجهُ الدولة والدولة سلطان تحيا بهِ السنّة والسنّة سياسة يسوسها الملك والملك نظام يعضدهُ الجند والجند اعوان يكفلهم المال والمال رزقٌ تجمعهُ الرعية والرعية عبيدٌ يكفهم العدل والعدل مألوف وبهِ قوام العالم "

واختلفوا في حقيقة هذه السنن فذهب قومٌ الى انها الشرع المفروض من عند الله والّا لم يكن لها وقع في القلوب ولا نهيٌ عن المنكر وقال غيرهم بل هي الشرع على الاطلاق والّا لما اقتضى ان تتم العمارة للبشر قبل الانبياء ولا لامم غير تابعة لهم . قال ابن خلدون " وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون اثبات النبوّة بالدليل العقلي وانها خاصّة طبيعية للانسان فيقررون هذا البرهان الى غايتهِ وانهُ لابدّ للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون وذلك الحكم يكون بشرعٍ مفروضٍ من عند الله يأتي بهِ واحدٌ من البشر وانهُ لا بدّ ان يكون مميزًا عنهم بما اودع الله فيهِ من خواص هدايتهِ ليقع التسليم لهُ والقبول منهُ حتى يتمّ الحكم فيهم وعليهم من غير انكارٍ ولا تزييف وهذه القضية للحكماء غير برهانيّة كما تراهُ اذ الوجود وحياة البشر قد تتمّ من دون ذلك بما يفرضهُ الحاكم لنفسهِ او بالعصبيّة التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادّتهِ . فاهل الكتاب المتبعون للانبياء قليلون بالنسبة الى المجوس الذين ليس لهم كتاب فانهم اكثر اهل الارض ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فضلاً عن الحياة وكذلك هي لهم لهذا العهد في الاقاليم المخرفة في الشمال والجنوب بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع لهم البتة فانهُ يمتنع وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوّات وانهُ ليس بعقلي وانما مدركهُ الشرع كما هو مذهب السلف من الامّة " . وذهب فريقٌ الى ان السنن التي اصطلح عليها الانسان في بادىء اجتماعهِ انما هي سنن العوائد وهي احكام تكليفية مرعية في المعاملات والمعايش انما المحكومة لاتشدّد في المحافظة عليها وهي تحصل للناس بالتربية والمحاكاة وتنشأ فيهم عن سليقة وهي اسبق

كل السنن . وذهب سبنسر الى انها اصلها جميعًا لانها هي المرعية وحدها عند بعض الاجيال من البشر المتغلبين في التوحش كاهل أستراليا وطسمانيا والاسكيمو وغيرهم ممن ليس لهم نظامات سياسية ولا دينية او هي فيهم أثر من عين . قالوا وقد كان زمام هذه النظامات السياسية والدينية أولًا في يد سلطانٍ واحدٍ ولم ينفصلا الّا بعد حين اي بعد ان بلغ الانسان درجةً عالية في العمران كما تدلُّ احوال كثيرٍ من اجيال البشر اليوم وكما يعلم من تاريخ الامم العظيمة والملل الشهيرة . وذهب المحققون الى ان السنن ينبغي ان تكون تابعة للانسان لا متبوعة به اي ان تكون متغيرة لا ثابتة ومقيدة لا مطلقة حتى تكون نافعة له لا سببًا مانعًا لارتقائهِ والّا لما قدر الانسان ان يخطو خطوةً عما يفرضهُ له نظام معلوم ولبقي في كل عصرٍ وفي كل جيلٍ كما كان في العصر الاوّل والجيل الاول من اجتماعهِ لان كل جيلٍ له سنن لا تصلح لسواهُ فان لم تتغير هي لم يتغير هو . والحق ان احوال الامم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرةٍ واحدة ومنهاجٍ مستقرٍّ كما يقول ابن خلدون انما هي اختلافٌ على الايام والازمنة بانتقالٍ من حالٍ الى حالٍ الّا ان هذا التبدُّل في الاحوال والعوائد والنحل يتبدَّل الاعصار ومرور الايام يذهل عنهُ الكثير من الناس اذ لا يقع الّا بعد احقابٍ متطاولة فلا يكاد يتفطن له الّا الآحاد من اهل الخليقة

واختلفوا في طبيعة الحكم الوازع فقال قوم هو الحكم الملكي المطلق ورأسهُ الملك وقد اشار انوشروان الى ذلك حيث قال "ورأس الكل افتقاد الملك حال رعيتهِ بنفسهِ واقتدارهُ على تأديبها حتى يأكها ولا تملكهُ" وقال غيرهم بل هذا النظام مفسد للعدل الذي هو اسُّ العمران بما يولي الملك من السلطان المطلق على عمالهِ وعلى رعيتهِ اذ لا يكون لاعمالهِ منقد ولا لأحكامهِ معدل فيعدل الى الاستبداد في أمور الرعية ويستخدمها لأغراضهِ الخصوصية . واذ تستحصُّ الرعية منهُ بذلك تدين له خاضعة خادعة ويسود عليها مخضوعًا له مخدوعًا . فيتقرَّب له اصحاب الاغراض بالكذب في موضع الصدق وبالاطراء في موضع التنديد لان الناس متطلعون الى الدنيا من جاهٍ او ثروة والنفوس مولعة بحب الثناء . ويسلك معهُ على هذا المنهاج عمَّالهُ وتبَّاعهُ وسائر بطانتهِ فيحجبون عنهُ صحيح الأخبار متزلفين اليهِ بما يزيدهم فيهِ استئثارًا وفي احوال الرعية استبدادًا

حكى ابو الفدا في تاريخهِ قال "بينا الخليفة المنصور يطوف بالكعبة ليلًا اذ سمع قائلًا يقول اللهمَّ اني اشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق واهلهِ من الطمع . فخرج المنصور الى ناحية من المسجد ودعا القائل وسأله عن قوله (وكان

المنصور ملكًا عادلًا) فقال له يا امير المؤمنين ان أمنتني انبأتك بالامور على جليتها واصولها فأمنه فقال ان الذي دخله الطمع حتى حال بين الحق واهله هو انت يا أمير المؤمنين فقال المنصور ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي . فقال الرجل لانّ الله استرعاك المسلمين واموالهم فجعلت بينك وبينهم حجابًا من الجص والآجر وابوابًا من الحديد وحجّابًا معهم الاسلحة وامرتهم ان لا يدخل عليك الّا فلان وفلان ولم تأمر بايصال المظلوم والملهوف ولا الجائع والعاري ولا الضعيف والفقير وما احد الّا وله من هذا الامر حق . فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك تجبي الاموال فلا تعطيها وتجمعها ولا تقسمها قالوا هذا قد خان الله تعالى فما لنا لا نخونه وقد صفر لنا نفسه فانتقوا على ان لا يصل اليك من اخبار الناس الّا ما ارادوا ولا يخرج لك عامل فيخالف امرهم الّا اقصوهُ ونفوهُ حتى تسقط منزلته ويصغر قدرهُ . فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم فكان اول من صانعهم عمالك بالهدايا ليتقووا بهم على ظلم رعيتك . ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك ليتالوا بهِ ظلم من دونهم . فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلمًا وفسادًا وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وانت غافل . فان جاء متظلم حيل بينهُ وبين الدخول اليك فان اراد رفع قصة اليك وجدك قد منعت من ذلك وجعلت رجلًا ينظر في المظالم فلا يزال المظلوم يختلف اليهِ وهو يدافعهُ خوفًا من بطانتك فاذا صرخ بين يديك ضُرب ضربًا شديدًا ليكون نكالًا لغيره وانت تنظر ولا تنكر فما بقاء الاسلام على هذا . فان قلتَ انما تجمع المال لولدك فقد اراك الله في الطفل يسقط من بطن امهِ وما لهُ في الارض مال وما من مالٍ الّا ودونهُ يدٌ شحيحة فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى يعظم رغبة الناس اليهِ . ولست الذي يعطي وانما الله عزّ وجلّ يعطي من يشاء بغير حساب . وان قلت انما اجمع المال لتسديد الملك وتقويته فقد اراك الله في بني أميّة ما أغنى عنهم ما جمعوهُ من الذهب والفضة وما اعدّوا من الرجال والسلاح والكراع حين اراد الله ما اراد . وان قلت انما اجمعهُ لطلب غايةٍ هي اجسم من الغاية التي انت فيها فوالله ما فوق الذي انت فيهِ منزلة الّا منزلة ما تُنال الّا بخلاف ما انت عليهِ "

فلم يكن بدٌّ في مثل هذا النظام من تعظيم شريعة الله والاكثار من الهذيد بها تذكيرًا للملوك وتهويلًا كما فعل الاعرابيُّ المذكور مع المنصور وكما فعل بهرام ابن بهرام في حكاية البوم حيث يقول ايها الملك ان الملك لا يتمّ عزّهُ الّا بالشريعة والقيام لله بطاعتهِ والتصرف تحت امرهِ ونهيهِ . " والّا قلّ عدلهم وانتفى صلاحهم وكثر جورهم وصار بناء ملكهم اذ ليس

لم زاجرٌ سواها لانهم غير مسئولين في ما عهد اليهم من امور العباد الاّ لله وحدهُ . هذا على فرض ان يكون الملك حليمًا عادلاً فكيف بهِ اذا كان جبارًا عاتيًا كتيمور الذي كان كلما فتح مملكة او مدينة بنى من رؤوس اهلها هرَمًا

قالوا ولهذا النظام ايضًا أثر لا يحمد في الاخلاق اذ تنحط معهُ الهمم وتضعف العزائم وتذلّ النفوس بما يكثر من الظلم فيسود الرياء وينشو الكذب لان الذين يغلب فيهم الظلم يغلب عليهم الرياء حتى يصير فيهم ملكة طبيعية فيقلّ الصدق لان القوم الذين يغلب فيهم الرياء هم قومٌ لا يصدّقون ولا يصدقون فيختل نظام الملك ويسوء حال الرعية وتتفند على مر الزمان استقلالها في عالم الوجود . قال ابقراط في كتاب الاهوية والمياه والمساكن "لذلك كان اهل آسيا اقل نجدة للحروب من اهل اوربا لان اعظم قسم منها تحكمهُ ملوك وحيثما كان الناس عبيدًا لسواهم فهم لا يهتمون بان يتمرنوا على السلاح بل ان يتخلصوا من التجند لان الخطر غير موزّع على السواء . فالرعايا يذهبون للحرب متحملين مشقاتها ويموتون عن سادتهم بعيدين عن اولادهم ونسائهم واصدقائهم وسادتهم هم الذين يجنون ثمرة اتعابهم لمد شوكتهم واما هم فلا ينالهم غير اقتحام الاهوال والموت . ومما يؤيد ذلك ان جميع الذين في اسيا من اليونان والبرابرة ممن لا سادة لهم بل هم يتولون الحكم فيهم وعليهم بشرائعهم ويشتغلون لانفسهم هم بين سكانها انجدهم للحروب واقدمهم على الخطر لانهم هم الذين يجنون ثمرة بسالتهم ويتحملون عار جبنهم" . لذلك قالوا ان الحاكم ينبغي أن يكون مقيدًا بسنن تضعها الامة وان يكون مسئولاً لها بها وهذا النظام لهُ فوائد جمة اوّلاً ان الحاكم لا يكون معهُ مطلق التصرُّف فاحكامهُ في الامر والنهي لا تجري الاّ اذا كانت مطابقة لوضع السنن المقرَّرة والتي يحافظ عليها رجالٌ من مشارب مختلفة وآراء متباينة تعهد الامة اليهم بها . ثم لما كانت احتياجات الامة تختلف باختلاف احوالها كان هذا النظام موجبًا من هؤلاء الرجال في النظر هذه السنن لتعديلها من وقتٍ الى آخر بحيث تكون موافقة للحال ويكون ذلك بالاشتراك مع الامة التي يطّلعون على آرائها ومناويها ويفهمون مقاصدها ومغازيها اذ لا يكون معهُ حجرٌ على الافكار . وهذا الامر من طبعهِ ان يثير حربًا في الآراء والمذاهب تكون نارها بردًا وسلامًا على الامة . لان المضادة التي تنشأ حينئذٍ تكون نتيجتها اعطاء الاشياء حقها من التمحيص قبل اقرارها والوقوف فيها عند حد الاعتدال والاّ ان لم تكن المضادة في الآراء لم يكن تمحيصها بنار الانتقاد ولا الاعتدال بها اذ تنفرد بها النفوس ويقوى بها التشيع والنفس اذا خامرها تشيعٌ كان ذلك التشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد فتجمح الى ركوب متن الافراط او تسقط في مهواة التفريط . ولا يخفى ما لذلك النظام من الاثر في تحسين